تجلي الأنا والآخر في تجربة عمارة لخوص الروائية –كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك والقاهرة الصغيرة –أنموذجا.

الأستاذة :أحلام العلمي

جامعة : قسنطينة

صنعت الرواية المغاربية عموما والجزائرية خصوصا مشهدا روائيا تجريبيا حافلا بالتغيرات صوب المختلف ؛ بتقديم نماذج روائية حاكت الواقع السوسيولوجي الذي عاشه المجتمع المغاربي من خلال الطرح الموضوعاتي الذي استطاع أن يغاير الممارسات الفكرية والأدبية السابقة شكلا ومضمونا ؛انطلاقا من فكرة استحداث القديم لمسايرة الراهن والبحث عن مجريات فاعلة تُحرك مسار الشكل الأدبي الروائي تبعا للتطور الحاصل ،فقد سعى هذا الأخير إلى توسيع نطاق أفكاره وتنويعها بعيدا عن النمط السائد ؛فكانت روايات الجزائري الشاب "عمارة لخوص" "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك " ورواية " القاهرة الصغيرة " من بين النماذج التي تخطت عتبة وحدود هوية النص الجزائري نحو الطرح العالمي ؛ فقد استطاع الروائي "عمارة لخوص" التملص من عباءة التجارب الروائية السابقة ، ومن أسر الانتماء إبداعيا إلى حيز المجتمع الجزائري بكل معطياته ؛ حيث يُلامس القارئ المتتبع لتجربته الروائية – على قصرها – تجرد بعض نصوصه من كل القرائن التي تربطها بالجزائر ، حيث جسدت إبداعا روائيا متجردا من النكهة الجزائرية ، حتى إن القارئ / المطلع على هذه التجربة للمرة الأولى قد يُساوره شكٌ فيما إذا كان حقا روائيا جزائريا لابتعاده عن الهوية التي تفرض نفسها كل مرة في الروايات الجزائرية ، فقد قدم لنا من خلالها نصوصا روائية مهاجرة غايتها تمثّل البعد العالمي للأدب إذ جسدت هذه التجربة الروائية الجديدة ثورة ضد التجارب الروائية السابقة المدججة بالتاريخ والايدولوجيا والواقعية الحرفية ، حيث غايرت السائد من خلال محاكاتها للآخر في عمق دياره ، ولعل هذا ما منحها شرف التربع على عرش الاختلاف.

" تجلي الأنا والآخر في تجربة عمارة لخوص الروائية –كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك والقاهرة الصغيرة –أنموذجا " مداخلة تسعى إلى الإجابة على أسئلة أهمها:

1-هل استطاعت التجارب الروائية الجزائرية الجديدة أن تجسد المختلف في ظل الطرح الراهن؟

2- هل جسدت روايتا "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك " و"القاهرة الصغيرة " مفهوم "الآنا والآخر" بتفاصيله أم أنهما بقيتا حبيسة الهوية المحلية ؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة فإننا ننطلق من مقولة للأديب والفيلسوف الأمريكي :

" رالف والدو مرسون" "Ralph Waldo Emerson" إذ يقول:

«يبدو أن الكاتب الجيد هو الذي يكتب عن نفسه وعينُه دائما على الخيط الرفيع الذي يمر عليه وعلى الأشياء »

إذ تعتبر الرواية "Le Roman " من أبرز الأنواع الأدبية التي استطاعت أن تشكل لنفسها قاعدة ثقافية وجماهيرية واسعة في ظل الزخم الذي تميزت به الأشكال الأدبية الأخرى لتكون الرواية بذلك «...جنس سردي نثري فني. حكاية خيالية.تستمد خيالها من طبيعة تاريخية عميقة ... »[1] ؛ ولعل هذا ما جعلها ترسم حدودا لا منتهية شكلا ومضمونا بتجاوزها النقاط التي ركزت عليها سابقاتها ؛ ولتبني لنفسها لوحة إيديولوجية سايرت جدلية التحول السوسيولوجي ما جعلها من أكثر الأشكال الأدبية الثقافية انتشارا لقدرتها على معالجة «... المواضيع والإشكالات الواقعية المعقدة ، أنتج لدى القارئ ميولات فعلية لهذا الفن ،حيث صارت تتحدد هذه الميولات بدوافع ذوقية وفكرية ، وفي هذه الحال أمكن التمييز بين ما هو عاطفي ذاتي ،وعلمي موضوعي .حيث إن القراء يتعددون تبعا لاهتماماتهم واستعداداتهم وميولاتهم الفنية ،وإمكاناتهم الفكرية ... »[2] ؛لتتربع الرواية بذلك على الأشكال الأدبية الأكثر انتشارا بمحاكاتها ذائقة القراء المختلفة .

استطاع الجنس الروائي أن يحجز لنفسه مكانة هامة في ربوع الوطن العربي وهذا بعد الاحتكاك المباشر بما جادت به قريحة الغرب ، وبعد مرحلتي التأسيس والتأصيل اللتين شغلتا الوسط الأدبي العربي في فن الرواية ؛ استطاعت مرحلة التجريب أن تبرز مجموعة لا بأس بها من الروايات بعد أن «...قضت وقتا من الارتباك والعثرات قبل أن تستقر على مجموعة النماذج والصياغات المتراوحة بين الموصوفة أو المتسمة بالرومانسية ،والطبيعية والواقعية العامة... »[3] ؛ولعل هذا التنوع الذي صنعه التجريب بوصفه حقا مشروعا قد أعطى بريق هذا الفن (الرواية) بطابعه الشرقي الذي يُميز المجتمع العربي بأعرافه وتقاليده؛ودليل ذلك روايات حققت جماهيرية فكرية وثقافية واجتماعية فاقت جميع التوقعات مثل روايات :"نجيب محفوظ" و"إبراهيم صنع الله" وغيرهم كثيرون .

ومن المشرق وصولا إلى المغرب العربي استطاع هذا الفن أن يحدد هويته المغاربية بتميز نصوصه الروائية و«...بتعددية الشكل واللغة وتقنيات المعالجة ،وتنوع طبيعة المواضيع المطروحة ،غير أنها تبقى مشتركة في معالجة الواقع المغاربي بشكل عام ،وذلك تبعا للقواسم الحضارية ،والتاريخية ،والثقافية ،والواقعية المتطابقة إلى حد ما »[4] ؛ولعل تعدد هذه القواسم واشتراكها جعل الرواية المغاربية عموما بما تحمله من أبعاد فكرية ودينية واجتماعية ؛ تُوَسِعُ حدودها الفكرية بخلق نص مغاربي يستند على قاعدة ثقافية تخطت من خلالها عوامل البيئة والتقاليد بتجاوزها خطوط السائد ذلك أن «...الرواية العربية في بلدان المغرب العربي ،وهي بنت هذه الأرض ،ومشَّخصةٌ لكثير من طباعها وصعابها وطموح بشرها وأساليب أدبائها ، لهي كتابة تنتمي إلى حقل الأدب العربي الأوسع ،رغم كل خصوصياتها المفترضة ، لها تاريخيته ،وشواغله ، وانجذاباته ،وتخصيصها بالحديث عنها في إطار مغاربي يعني نقلها من الأدب العام إلى الأدب الوطني... »[5] ، فلا يخفى على المتتبع للمسار الروائي المغاربي في الإقرار بأنه قد مر بمراحل ثلاث أسست كل واحدة منها للمرحلة الآتية بدءا بمرحلة التأسيس مرورا بمرحلة التأصيل وصولا إلى مرحلة التجريب التي رصدت مرحلة مغايرة تخطت عقبات سابقتيها نحو «... تجاوز محليتها الضيقة وقوميتها

المحدودة إلى العالمية باستثناء بعض النصوص التي أثبتت تميزها ،فضلا عن عدم وجود ملامح محددة لكل روائي حيث يطغى التجريب على الكتابة الروائية المغاربية التي لازالت تبحث عن خصوصياتها وتسعى في الآن ذاته إلى إثبات هويتها وتفردها... »[6]

وهذا ما جعلها تخطو نحو مقاربة حركية الراهن وتفعيل القاعدة فكرية ؛ لتتخطى بها حدود هوية النص المحلي بإبراز عوامل الصراع التي جعلتها تخطو بخطى ثابتة نحو مجارات الراهن برؤى مختلفة.

1- تحولات الرواية المغاربية المعاصرة:

سعت الرواية المغاربية منذ زمن إلى إرساء معالمها شكلا ومضمونا من خلال رسمها لخارطة ثقافية جسدت تغييرا لوضعها الأدبي ؛ فمن الممارسات الروائية التي حاولت تصوير الواقع ونقله بصورة واضحة رواية "عائشة" لـ"بشير بن سلامة "[7] التي أعطت نظرة عن المجتمع التونسي قبل الاستقلال ، ورسم مخاوف بطلة الرواية "عائشة " ،ومن رواية "عائشة"إلى رواية "الخبز الحافي" للمغربي "محمد شكري "[8] التي صور من خلالها مرحلة من البؤس النفسي والاجتماعي باعتبارها سيرة ذاتية تحاكي مرحلة من حياة مغربي بين ترف عيش المدينة و قذارة البيئة الريفية التي أجبره القدر على عيشها مع أب متسلط وبين حالة الشقاء ورحلة البحث عن الأنا بين ربوع الأحياء المغربية ؛حاولت هذه الرواية أن تنقل الحالة النفسية التي يؤول إليها البطل في خضم الفقر وسذاجة الأم وقهر الأب والمجتمع معا،لذا «...شكلت الذات الفردية للكاتب مادة الحكي ومرجع الكتابة الأساس ،بحيث اقترنت ولادة الرواية بلحظة وعي حاد بالأنا .إنها استعادة للتاريخ الشخصي للمثقف المغربي،عبر السرد ،بعد أن كان الشعر هو ملاذ الذات الممتاز .فالانتقال من عهد الاستعمار إلى عهد الاستقلال ،من سياج الدائرة المغلقة للإجماع الوطني والالتفاف الجماعي حول (مشروع الوطنية المغربية) إلى فسحة المدى المفتوح للتفرد الشخصي ، والانخراط الاجتماعي ضمن الهموم والمواقع الطبقية الجديدة ،كل ذلك شكل منعرجا أساسيا للنخبة الوطنية ومجموع مثقفي المرحلة فجاءت (الرواية–السيرية) كجواب على سؤال اللحظة الانتقالية : لحظة تبدل القيم ،وبداية انجلاء الإرغامات »[9] .

ومن النماذج الروائية المغاربية أيضا رواية "أحلام الفرسان القتيلة " " لإبراهيم الكوني"[10] التي أعطت بعدا آخر بالاشتغال على التجربة الثورية ضد الحاكم للشعب الليبي؛ بصراع الثوريين وأصحاب النظام وإعطاء صورة عن الربيع العربي ، لتكون جُل هذه الروايات وغيرها وليدة تحولات العصر من خلال الخروج عن الحدود المألوفة في النمط الكتابي المغاربي ولعل «...البحث في أسئلة المتن الروائي المغاربي في ضوء المراحل التي مرت بها بلدان المغرب العربي على مدى النصف الثاني من القرن العشرين ، يكشف عن جدلية التفاعل بين الواقع المغاربي في تحولاته المتّأزّمة –في الأغلب – والمتون الحكائية للرواية المغاربية .فكلما تحّولت أبنية الواقع إلاّ وأنتجت أسئلة

متن حكائي جديدة ،تعّبر عن إشكاليات المرحلة»[11] ،فقد مثلت النماذج الروائية المذكورة أمثلة عن تطور الوعي الثقافي والاجتماعي ما أعطى برهانا يُنم على التنوع الفكري الذي تماشى مع تطور المجتمع المغاربي وفقا لمنظومة مرجعية تعمل على تسخير الواقع اليومي كمنطلق لها لتنطلق بذلك «...من إيديولوجية تحدد مفهوما معينا للواقع وللإنسان معا.وتصورا خاصا للعلاقات الداخلية والخارجية ،التي يتفاعل معها المجتمع المغاربي عبر صراعه الطويل والمرير ،مع القوى الاستعمارية وعُملائها .أيام الثورة التحريرية .ومع الإقطاع والبرجوازية الوطنية ،بعد الاستقلال ،والتي تحاول أن تقيد تطوره في المستقبل وتحقيق ما حلم به طويلا ،ودفع من أجله ثمنا باهظا... »[12] ؛ وليتأسس من خلالها نموذج روائي قابل للتغيير والتطور مع القوانين التي يفرضها المجتمع بأعرافه ؛هذه التي تتأثر بها القواعد الفكرية للرواية المغاربية على اختلاف توجهاتها وجغرافيتها ؛ لتبرز على الساحة الأدبية الروائية العربية و العالمية بعد باع طويل من الممارسات التي كانت تغلب عليها اللغة الفرنسية؛ ملامح مكتملة من النموذج الروائي العربي المغاربي بامتياز ذلك أن جل الروايات المغاربية المعاصرة قد«...تعاملت مع الواقع بمنظار خاص لا يأخذ بعين الاعتبار نظرية التطور الحتمي للتاريخ ولذلك كانت تنظر إلى المجتمع كواقع سكوني ،وفي أفضل الحالات كانت ترصد مرحلة من مراحل التطور السابقة للمجتمع مع التوقف عند لحظة من اللحظات التاريخية واعتبارها نقطة يستريح عندها السير التاريخي .وقد كانت الأسباب الداعية إلى هذا التوقف عند نقطة معينة من التاريخ راجعة إلى أن الروائي كان يرى في تلك اللحظة توافقا بين الطموحات الانسانية ومعطيات الواقع »[13]؛ لترتاد الرواية المغاربية المكتوبة باللغة العربية مكانة هامة استطاعت تجاوز حدودها نحو الوطن العربي وحتى العالمي بنسج نماذج تجاوزت عتبة الرواسب السائدة نحو المتغير بإلغاء الخصوصية الرائجة.

2- راهن الرواية الجزائرية المعاصرة:

استطاعت التجربة الروائية الجزائرية في ظل التحولات الراهنة امتلاك حصاد روائي زاخر ؛لتكون من أبرز النماذج الروائية المغاربية التي استطاعت تخطي حدود الهوية الوطنية التي صنعت الحدث الروائي في كثير من النصوص التي ركزت على أصناف من المجتمع مع توثيق قمع المستعمر والسياسة الداخلية للأفراد ،وعلى عكس ذلك هذا الطرح حاول النمط الروائي الجزائري الجديد غربلة الأفكار السائدة والولوج إلى عالم فكري مختلف نحو استطلاع المسكوت عنه بعيدا عن التقاليد الرائجة فالنتاج «... السردي التخييلي في الأدب الجزائري كان في كثير من الأحيان ابنا شرعيا لهذه الوقائع ،ثم في ما اعترى الحياة من هزات عنيفة دفعت بالكُتاب إلى إعادة النظر رأسا على عقب في تصوراتهم وأساليب و"تقنيات" كتابتهم ،وقد اختل التوازن ،وضاعت وحدة الرؤية التي كانت تصهر المجتمع في لحمة مشتركة .انتقلت البلاد من المشروع الواحد إلى المتعدد ،ومن هيمنة إيديولوجيا حرب التحرير إلى العنف الأهلي ، ومن مطامح النمو والديمقراطية والعدالة الاجتماعية إلى تناقضات اجتماعية واقتصادية فضلا عن وجهها السياسي ،تراوحت بين مكاسب وخسارات وانعكست عموما في صورة خيبة أمل على نفوس

الكُتاب،بل إن كتاباتهم أرهصت بالانكسار ،خاصة بعد أن تحولوا بين المصالح المتحاربة إلى نخبة مارقة مستهدفة ، وصاروا منددين،أو نابذين لما كان أسلافهم هم أنفسهم أحيانا به يتغنون »[14] ؛فهذه النظرة المغايرة جعلت الأقلام الشابة تنشد النمط المتحرر في الكتابة بملامسة الجديد استنادا على قاعدة إيديولوجية وهذا باستنادها على الآفاق الفكرية الاجتماعية للمجتمع الجزائري من منظور آخر(منظور الذات/الفرد) ؛ولتكون التجربة الروائية الشابة وثيقة إبداعية تتجاوز جغرافيتها الفكرية إلى تجسيد مجتمع جزائري وفق ما يتخيله الروائي أو وفق ما يريده ،فقد عكست السيرورة الروائية الجزائرية تحولات عديدة ومتنوعة بدأ بمرحلة السبعينيات التأسيسية مرورا بالحركة التأصيلية وصولا إلى الحركة التجريبية المتنوعة والزاخرة .

3- الرواية التجريبية الجزائرية المعاصرة (كسر النموذج):

تَوجت المتون الروائية السردية المعاصرة الساحة الأدبية بنماذج وموضوعات خرجت عن الطرح المألوف وأثثت من خلالها محيط الرواية بتصعيد النقاش حول مواضيع متداخلة ولم تنحصر التجربة الروائية الجديدة على الأقلام الشابة فقط ؛ بل تجاوزت تجربة الروائي "واسيني لعرج "منطقة المألوف بتعديه لنمط الرواية الوصفية نحو تحريك الأحداث من خلال روايته "مملكة الفراشة"[15] إذ يُهيأ للقارئ وللوهلة الأولى أنه بصدد قراءة أحداث لشخصيات غربية على غرار تسمياتها التي تناولها الروائي بطابع مغاير للمعهود : ياما وهي الشخصية البطلة وفاوس بدل اسم فادي وزوربا كبديل زبير ، و فريجة أو فيرجينيا كلها أسماء جزائرية عربية بلكنة غربية صنعت ملامح نص روائي يعكس قهر الذات ومجابهة المجتمع ، فيحسبُها القارئ للوهلة الأولى أحداثا من صلب الحاضر ،ليكون المشروع الروائي الذي قدمه واسيني خير شاهد على التنوع والثراء الذي شغل رواياته ؛ ولعل حالة الخراب الذي شغل المجتمع في فترة ما فتح مأوى آخر لأفكار الروائيين نحو تجديد الذات على حساب ما طرحه المجتمع مرارا وتكرارا ، فنتاج الحركة الروائية المعاصرة ما هو إلا رد على الحروب الصامتة التي تجابه الفرد الجزائري مما أدى ذلك إلى بروز «...جيل مختلف يشق لنفسه طريقا مستقلة ،وروايته ذات محتوى ولبوس فني مغايرين ،تتراوح بين خصائص التجربة السردية العربية الجديدة كلها ،وضمنها الأجنبية ،أيضا ،وبين ما يمكن أن يميزها كعناصر من إبداع الذات المحلية وشواغل أناس ومجتمع يبحثان عن مصير وأفق حياة أخرى غير ما أتيح لهما حتى الآن ،أو ما عاشاه بأوضاع شتى... »[16] ،ولعله من أبرز الأقلام الإبداعية التي شاركت في صنع الحدث الروائي المختلف الروائي "بشير مفتي" الذي تخطى عتبة المسايسة الفكرية للمجتمع من خلال النظرة السوداوية التي تغطي جزءا من رواياته على غرار رواية "دمية النار" [17] التي تُظهر فترة من الجزائر البائسة وكيف يتحول البطل إلى خادم للنظام ،وتحت منطلق الصوت الواحد حاول الراوي إظهار الواقع وتبعيته على الذات المقهورة تحت ظلال سياسة المجتمع الباحثة عن متنفس للحرية .

وغير بعيد عن "بشير مفتي" تتفق " فضيلة الفاروق " مع سياسة الحرية بخرقها أفق مخيال القارئ منذ بداية رواياتها التي تخطت غير السائد نحو كسر الطابوهات بالهجرة إلى أعماق الأنثى من وجهة نظر الأنثى الهاربة من فوبيا الأحلام الوردية ؛ فيصعب تحديد الخط الفاصل بين البطلة والروائية ،ولعل لغة التمرد والجرأة التي تناولتها رواية "تاء الخجل"[18] عملت على كسر قيود التقاليد التي سجنت المرأة لفترة طويلة من الزمن ،فقد طرح الخط الدرامي للرواية مشكلة النساء المغتصبات من طرف ما يسمونه الجماعات الجهادية المسلحة في تسعينيات القرن الماضي ،وكيف للمرأة التي تكالبت عليها الذئاب أن تتحمل خطيئة ارتكبها الآخر ،لتكون الرواية "خرجة " جديدة مستوحاة من زمن المحنة الذي عصف بفترة من فترات الجزائر السوداء ولتكون النظرة التشاؤمية التي عبرت عنها "فضيلة الفاروق " السبيل الأوحد لتشكيل ملامح جزء من المرأة بعد أن «...غامت الرؤية ،وتعتم الأفق ،وضاق الوطن،والتبست أبعاده... »[19] في إطار النمط الروائي الجزائري الجديد بانتهاج الروائية أسلوبا قلما يُشار إليه في بضعة أسطر في روايات سابقة لهذه المرحلة.

لعبت روايات "سمير قسيمي " دروا هاما في إظهار المضمار الصريح لأفكار الذات والآخر فكانت روايته "تصريح بضياع"[20] مدخلا صريحا نحو "أدب السجون " ؛هذا النحو الذي خالف الشكل المعتاد " تصريح بضياع" خروج صريح من الإطار الكلاسيكي نحو هيكلة هوية روائية ،ولعل البحث عن الشكل أو القالب المختلف قد تجلى في عجائبية هذه الرواية من خلال العالم اللا غيبي الذي وضع عائلة هذه الرواية في حالة قلق دائم ،وغير ذلك استطاعت الرواية أن تخلق عالما آخر من التأويلات والقراءات المتعددة لنص واحد و«...هذا الانفتاح للنص الروائي يجعل منه أكثر من نص .ذلك أنه يحتاج إلى أكثر من متلق لقراءته ،تبعا لتعدد دلالاته وإيحاءاته ... »[21] من خلال علاقة البطل "اسماعيل "مع المسجون" أحمد الصوري" التي صورت تساؤلات عديدة .

4-الأنا والأخر في روايتي :"كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" و "القاهرة الصغيرة":

عرفت الحالة الفكرية والسردية للحقل الروائي الجزائري انتعاشا مميزا من خلال إنجازات شبابها المبدعين ؛هذه الأصوات الجديدة التي عملت على رسم خارطة روائية تحاكي الذات والآخر بنظرة جزائرية جديدة ،وليس من الممكن تجاوز واحد من الأصوات الروائية الشابة الذين تجاوزوا الهوية الجزائرية من خلال محاكاة الآخر في عمق دياره وهو الروائي الشاب "عمارة لخوص" بتجربتيه المهاجرتين "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" [22] ،و"القاهرة الصغيرة"[23] هاتين الأخيرتين اللتين كونتا تجربة روائية مجردة من النكهة الجزائرية التي حضرت في جميع الروايات ،ولعل اللافت للانتباه هو تعالق الأنا والآخر وتصادم الحضارات داخل هاتين الروايتين وبعيدا عن الإيديولوجيا والواقعية الحرفية استطاع عمارة لخوص تجاوز القرائن التي تربطه بالوطن الأم الجزائر ،لكن كيف تماثل الأنا والآخر داخل المنجز الروائي على الرغم من قصر تجربته الروائية؟

"لا أجمل أن تلتقي ضدك فذلك وحده يجعلك تكتشف نفسك"

أحلام مستغانمي

بهذا القول نبدأ حديثنا عن الأنا والآخر هذه الثنائية التي وجدت طريقا لها إلى مصنفات الرواية الجزائرية ،فلا يمكن أن تُدْرس هذه الثنائية «...بمعزل عن السياق البيئي والواقع التاريخي ،فهي متربعة على جغرافيا والتاريخ والإنسان والأفكار ،ولذلك تقوم بين الأنا والآخر عدة علاقات لتضمن مكوثهما على طرفي نقيض ، وقوف تلازم وتقابل بغض النظر عن حدوث التوازن أو عدم حدوثه ،هذه العلاقات هي المسوغات النظرية للتلازم والتقابل منها التوتر الدائم والنقيض والعداء والصراع والنزاع »[24] ؛إذ ترتبط الأنا بهوية الذات في حين يرتبط الآخر بالغير ولا يمكن أن «...تتضح ملامح الهوية من دون لقاء مع الآخر ، إذ إن العزلة عنه،تجعلها ذات بعد واحد ،فيسرع إليها العطب والجمود،في حين نجد اللقاء معه يمنحها أبعادا مركبة،تنفتح على أكثر من عالم...»[25]؛هذه العوالم التي طرحتها أبعاد الروايتين اللتين تناولتا حال الأنا في ديار الآخر ؛الآخر المختلف كل الاختلاف عن الأنا التي اعتدنا محاورتها داخل المتون الروائية الجزائرية ؛فالأنا التي اعتدناه «..لا يظهر ...إلا على مستوى الإنسانية،ثم هو لن يكون إلا وجها للذات... »[26]،وفي خضم طرح هذه الثنائية الأنا/الآخر فإن أول سؤال يتبادر إلى الذهن هو كيف وُظف الأنا والآخر في حقل الرواية اللخوصية ؟ ذلك أن الروايتين قد أتاحتا الكثير من التساؤلات حول الأنا المختفية الهوية والآخر الطاغي على هوية الأنا ؛ فرواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" وبما تحمله من خبايا شكلت مادة دسمة تعج بالآخر :"بارويز منصور صمدي"،"بِنِدِتَا إِسْبُوزِيتُو" "إقبال أمير الله" ،"إلزابتَا فابياني" ،"ماريا كريستينا غُونْزاليز" ،"أنطونيو ماريني" وغيرهم كثيرون ممن صنعوا مشهد الآخر وما يحمله من تعدد الثقافات ،إذ يمثل :"بارويز منصور صمدي"الأنا الإيراني والآخر بالنسبة للشخصيات الأخرى ومن هنا يتعالق كل منهما أي (الأنا والآخر) بين ثنايا هذه الرواية، ولعل طغيان صورة المهاجر قد أثمرت ثنائية يصعب التمييز بينها وهذا من خلال جملة من " الأنا " التي تناولتها جميع الشخوص «...فعندما يكون الأنا هو السارد تصبح الثنائية في موقع الوضوح والسطوع ،فالأنا أنا ،وجميع من يقع خارجها ينتمي إلى خانة الآخر »[27] ؛إذ تقمصته جميع الشخوص فكل منها يروي قصته بضمير الأنا بداية "ببرويز منصور صمدي" الذي يفتتح الرواية بقوله : « قبل أيام قليلة ،لم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحا ،بينما **كنت** جالسا على أحد مقاعد المترو **أفرك** عينيّ **وأقاوم** بصعوبة النعاس المترتب على النهوض المبكر،إذ **وقع بصري** على شابة إيطالية وهي تلتهم بنهم بيتزا بحجم المظلة، **فأصابني** الغثيان ... »[28] وفي المقام نفسه يلجأ الراوي إلى تقمص 'الأنا' ليعبر عن ذاته لتتحول بمُقال شخصية أخرى إلى' آخر ' ،فكلٌ يحاول إثبات هويته ووطنيته وشخصه بإبعاد الآخر والتركيز على ذاته /أناه وعلاقاتها مع الآخر بين اتفاق وخلاف وهو ما جسدته شخصية "بِنِدِتا إِسْبُوزيتُو" والتي تشمل مساحتها داخل الرواية الكثير من الحديث عن الذات كقولها: « أنا من نابولي ،أقولها بصوت مرتفع دون

خجل.ثم لماذا أخجل؟ ألم يولد طُوطُو Toto في نابولي ! ...أنا من المعجبات بطوطو،...اسمي بندتا لكن يحلو للكثيرين مناداتي "لانابوليتانا" .لا أتضايق من هذه التسمية إطلاقا.أعرف أن الكثير من سكان العمارة يكرهونني بلا أدنى سبب رغم أنني أمينة ومخلصة في عملي »[29] ،كما لم تترك هذه الشخصية مساحة أو فرصة إلا وتناولت الآخر الذي جسدته شخوص متنوعة تقطن عمارة البوابة "بِنِدِتاَ" ،زيادة على ذلك فإن ما يُلفت الانتباه داخل المتن الروائي للرواية هو "السير ذاتي " الذي تتقمصه كل شخصية من الشخصيات ولعل النمط الجديد الذي تنتهجه الرواية ؛ أي السيرة الذاتية التي تعمل على «...توجيه (وفي بعض الأحيان إلى دفع) قرائها إلى طريقة معينة لتلقي الرواية من خلالها »[30] هو ما شملته رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك"، لتكون الهوية المطروحة داخل أي نص سردي روائي محورا يحاكي "الأنا " المدعو في كل مرة «...إلى التفاعل مع العالم عبر انفتاحية إنسانية كبرى ،... كذلك إلى ضرورة المحافظة على وجوده عبر تمسك إلزامي بخصوصيات هذا الوجود »[31] ؛ فالذات أو الأنا أو الهوية حق مشروع يُلامس أي نص روائي وهو ما شملته رواية عمارة لخوص التي تناولت الأنا بمفهومه الواسع .

اتفقت رواية "القاهرة الصغيرة" مع سابقتها رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك "في توظيف الأنا ،ولعل سياسة الروائي عمارة لخوص في الخروج من الدائرة المحلية قد أنتجت نصا مغايرا مليئا بدلالات الثنائية ، فتداول الحديث أو السرد بين بطلي الرواية " عيسى "و" صوفيا " أنتج العديد من صور الأنا التي ترسم خطوط الهوية عند شروع الساردين في الحكي ؛ فتدخلنا صوفيا الفتاة الشاردة والباحثة عن الحلم في بلاد الآخر بطريقة الحديث عن الأنا في رحلة إلى عالم الآخر من وجهة نظرها ،فالمتتبع ل"صوفيا " يعيش المأساة الاجتماعية والنفسية لهذه الشخصية التي لا تتوانى لحظة في سرد الذات والحياة فتقول : «... لم **أكن** سعيدة بالزواج بحد ذاته، إنما بفكرة السفر للعيش في إيطاليا بوصفها قبلة الموضة .**كنت أتخيل نفسي** كوافيرة من الطراز العالي أو العمل مع مشاهير مصممي الأزياء مثل فلانتينو وفرساتشي وأرماني وغوتشي ودولتشي وغبانا »[32] ؛يُشكل الأنا لدى هذه الشخصية الحلم الذي قد يتبناه الآخر ،زيادة على ذلك تحاول الرواية أن ترسم صورة للآخر من منظور صوفيا بقولها: «...بعد وقت قصير اكتشفت الحقيقة .كان حجابي كالضوء الأحمر في تقاطع الطرق ،يتوقف المارة بالضرورة عنده .إنها اللحظة المناسبة للتنفيس عن الخوف والقلق والتوتر.كنت مثل كيس الرمل الذي يتدرب عليه الملاكمون .في الواقع لم أكن أسير وحدي ،بل كنت دائما في صحبة العديد من المرافقين الوهميين ولكن أسماءهم معروفة لدى الخاصة والعامة مثل جهاد وكاميكاز و11 سبتمبر والإرهاب وتفجيرات والعراق وأفغانستان و11 مارس والقاعدة .... »[33] .

وغير بعيد عن صوفيا تتشارك شخصية "عيسى " مع "صوفيا" التوجه الذاتي والحديث عن " الأنا" وعلاقتها بالآخر ،ولعل اللافت للانتباه أن شخصية عيسى عاكست الذوات الأخرى بخلق نظام تفاعلي مع

الآخر من خلال الحوار « Le dialogue » ومن ذلك نجد حواره مع "السينيغالي" "إبراهيما" ولعل الغاية من إظهار الحوار هو تبيان "نموذج التفكير" بين كل من الإيطالي "عيسى" والآخر الذي تعدد من إبراهيما إلى المغربي " محمد" وغيرهم ،ومن خلال الحوار الذي دار بين "عيسى" و"إبراهيما" :

«يا أخي قوات الأمن...ينغصون حياتنا صباح مساء.يعاملوننا كأننا سُراق أو أسوأ»

«عملك مخالف للقانون»

« يا أخي أين المشكلة ؟نحن نشتري ونبيع ،نحن تجار ولسنا مجرمين ! »

« في إيطاليا لا بد من رخصة لممارسة التجارة »

« يا أخي السوق والأرصفة ملك الجميع لا ملكية خاصة »

« أنت مخطئ،إنها ملك البلدية »

« قُل كلاما آخر ! »[34]

تبرز ثقافة الاثنين ؛ولو أمعنا النظر بين ثنايا هذا الحوار لوجد أن "عيسى الإيطالي " ينظر إلى أعمال "إبراهيما" من وجهة نظر قانونية وهذا يدل على الأنا المتجدرة في الثقافة الإيطالية التي يحاول من خلالها "عيسى" إفهام الآخر بمفهومه الخاطئ ؛ في حين يصور إبراهيما صورة الآخر بوجهة نظره التي يفرض من خلالها تصور المهاجر عن التجارة غير المشروعة من وجهة نظر "عيسى" ،فتعددت الحوارات بين شخصية "عيسى "وغيره من الشخصيات وتطرح هذه الحوارات مفاهيم مختلفة بين العقليات الإيطالية والمهاجريين .

لا يمكننا الحديث عن الأنا دون أن تتعالق صورة الآخر أمامه والعكس ،وهذا ما عكسته الروايتان ، فكلما تحدثنا عن الأنا يسارع الآخر في إظهار نفسه كدليل على العلاقة التي تربطهما والتي لا يستطيع كل منهما المضي دون الآخر فلا نستطيع «... تجاهل الدور الذي يضطلع به "الآخر " بشأن تصور "الذات" لذاتها ، ولا يمكن تجاهل الصراع الذي يحصل بين الذات والآخر ،فالآخر حاضر وبكيفية وجودية ، إنه يُشكل أُفقا للذات وأحيانا جزءا من النظرة إلى الذات ،بغض النظر عن الأشكال التي يتقدم فيها (شريك،مسالم،غاز،محتل)..»[35] ،فالمطلع على الروايتين يتضح له تداول الذات على الآخر والآخر على الذات بمعنى إن سرد عيسى لما حدث له في "القاهرة الصغيرة" وتلاقيه بـ "صوفيا" فإنه يسرد الأنا ومقابلتها للآخر في حين تتغير هذه الثنائية لدى صوفيا عندما تتحدث عن نفسها لتكون الأنا وعن ملاقاتها لعيسى الذي يصبح الآخر فالذات « ... في مواجهة الآخر ،إنما تواجه نفسها منقوصة ،تنظر في مرآة حاجتها وعوزها.الآخر حضور يحتشد فيه شعور الذات بذاتها .وتزداد رغبتها بالاكتمال عبر الامتزاج به أو بما يرمز إليه.ومؤدى هذا كله هو أن وقفة الذات أمام الآخر،باختلافه الثقافي

–الحضاري ،هي وقفة مشبعة بالقلق ،بل هي وقفة سرعان ما تتلبس بالرحيل ،فتصير انطلاقة نحو المختلف أملا في الوصول إلى الكمال الذي لا يتحقق .. فلا يتبقى سوى آثار الرحيل إليه »[36] .

ليكون النموذج الروائي اللخوصي خير دليل عن خروج الرواية الجزائرية من حلبة التكرار والتعلق بما يفرضه المجتمع وما تحمله أبعاده التي تجعل الفرد رهين المحلية ،فقد شكلت الروايتان ثنائية الشرق /غرب بخلفية جزائري انتقل من المحلية صوب العالمية بخرق النظام المحلي وتجاوز دلالاته التي لاحقته فترة من الزمن ليظل النقاش مفتوحا حول سردية الرواية الجزائرية الشابة: هل هي مجرد أقلام تخلصت من العباءة التقليدية لتثبت نفسها أم أنها أقلام تساير التطور لتنتج رؤيا يمليها الآخر ؟ ليكون هذا الطرح محل تساؤل دائم.

الإحالات والهوامش:

(1)–راكز أحمد :الرواية بين النظرية والتطبيق أو مغامرة نبيل سليمان في (المسلة)،دار الحوار، سوريا، ط1 ،1995، ص13.

(2)– فتحي بوخالفة:التجربة الروائية المغاربية،دراسة في الفاعليات النصية وآليات القراءة،عالم الكتب الحديث،إربد،الأردن،2010، ص2.

(3)–أحمد المديني :تحولات النوع في الرواية العربية بين مغرب ومشرق،منتدى المعارف،بيروت ،لبنان،ط1، 2013،ص10.

(4)–فتحي بوخالفة: التجربة الروائية المغاربية،دراسة في الفاعليات النصية وآليات القراءة،ص3.

(5)– أحمد المديني :تحولات النوع في الرواية العربية بين مغرب ومشرق،ص32.

(6)–بوشوشة بن جمعة :النص الروائي المغاربي بين المد الإبداعي والإنحسار النقدي،مجلة الآداب ،معهد الآداب واللغة العربية،العدد1، قسنطينة،الجزائر،1994،ص133.

(7)–بشير بن سلامة :عائشة (العابرون)،دار الشروق،تونس،ط3 ،1986.

(8)–محمد شكري:الخبز الحافي،دار الساقي،ط6،بيروت،لبنان،2000.

(9)– محمد أمنصور:استراتيجيات التجريب في الرواية المغربية المعاصرة،شركة النشر والتوزيع المدارس،المغرب،ط1، 2006،ص25/24.

(10)- إبراهيم الكوني:فرسان الأحلام القتيلة،كتاب دبي الثقافية ،دار الصدى،العدد 63،دبي،ط1، 2012.

(11)-بوشوشة بن جمعة :التجريب وارتحالات السرد الروائي المغاربي،المغاربية للنشر،تونس،ط1، 2003،ص39.

(12)-إبراهيم عباس:تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية ،دراسة في بنية الشكل ،الطاهر وطار،عبدالله العروي،محمد لعروسي المطوي، المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والإشهار، دم،دط،2002،ص9.

(13)-حميد لحمداني:الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي،دراسة بنيوية تكوينية ،دار الثقافة،المغرب،ط1، 1985،ص525.

(14)-واسيني لعرج: مملكة الفراشة،كتاب دبي الثقافية،دار الصدى،العدد 85،ط1،دبي،2013.

(15)- أحمد المديني:تحولات النوع في الرواية العربية بين مغرب ومشرق،ص96.

(16)- نفسه،ص97.

(17)-بشير مفتي:دمية النار،منشورات الاختلاف،الجزائر،ط1، 2010.

(18)-فضيلة الفاروق:تاء الخجل،رياض الريس،بيروت،لبنان،ط2، 2000.

(19)-سمير قسيمي:تصريح بضياع،منشورات الاختلاف،الجزائر،ط2010،1.

(20)- بوشوشة بن جمعة :سردية التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية،المغاربية للطباعة والنشر،دم،دط،دت،ص86.

(21)-عبد العليم بوفاتح:الخطاب الروائي...بين المنهج والإبداع والهوية،مجلة الباحث،مخبر اللغة العربية وآدابها ،العدد السادس،الأغواط،الجزائر،2011،ص174.

(22)-عمارة لخوص:كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك،منشورات الاختلاف،الجزائر،ط2006،2.

(23)-عمارة لخوص:القاهرة الصغيرة،منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2010 .

(24)-عبد العزيز شويط:ثنائية الآنا والآخر في شعر محمد الفيتوري ،ديوان أغاني العاشق أذكريني يا إفريقيا أنموذجا،مجلة الناص،منشورات جامعة جيجل،العدد العاشر،جيجل ،الجزائر،2011،ص361.

(25)-ماجدة حمود:إشكالية الأنا والآخر(نماذج روائية عربية)،عالم المعرفة ،الكويت،2013،ص17.

(26)-جان بول سارتر:تعالي الأنا موجود،تر:حسن حنفي،دار التنوير،لبنان، ط1، 2005،ص52.

(27)-صلاح صالح:سرد الآخر،الأنا والآخر عبر اللغة السردية،المركز الثقافي العربي،المغرب،ط1، 2003، ص63.

(28)-عمارة لخوص : كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك،ص9.

(29)-المصدر نفسه،ص33.

(30)-صالح معيض الغامدي:كتابة الذات،دراسات في السيرة الذاتية،المركز الثقافي العربي،المغرب،ط1، 2013،ص137.

(31)-وجيه الفانوس:مخاطبات من الضفة الأخرى للنقد الأدبي ،اتحاد الكتاب اللبنانيين ،لبنان،ط1، 2001،ص35.

(32)-عمارة لخوص:القاهرة الصغيرة،ص37.

(33)-نفسه،ص75/74.

(34)-نفسه،78.

(35)-نهال مهيدات الآخر في الرواية النسوية العربية في خطاب المرأة والجسد والثقافة،عالم الكتب الحديث، عمان الأردن،ط1، 2008،ص37.

(36)-سعد البازعي :مقاربة الآخر،مقارنات أدبية، دار الشروق،مصر،ط1، 1999،ص12.